المدنية والبناء في بلاد وادي الرافدين

الدكتور وليـد محمود الجادر
الاستاذ المساعد في جامعة بغداد
كلية الاداب ـ قسم الآثار

ان ظهور ونمو المدن في وادي الرافدين لم يكن وليد صدفة بطبيعة الحال فلقد توفرت عوامل هامة ساهمت في تطوير وتحويل القرية العراقية القديمة الى مدينة بمعنى الكلمة • فقد أدت زيادة نسبة السكان في الوحدة الاجتماعية الى تركيز التجمع ، وهذه الظاهرة تعتبر مرتبطة ارتباطا عضويا بالتقدم والنمو التقني المتعلق بالزراعة والرعي وما يحتاجانه من تصنيع مكمل لهذا التطور •

ويحدد المختصون بالآثار فترة النصف الثاني من الالف الرابع ق•م ، أو ما يعرف بفترة الوركاء ، بداية مقبولة لظهور بعض القطاعات المدنية المميزة وسط التجمع السكاني الكبير في هذه المرحلة •

وبالقرب من ضفاف نهري دجلة والفرات اكتشف المنقبون ، مدنا اخرى اثبتت بقاياها الاثرية ، سواء في المجالات المعمارية ، أو من خلال موجوداتهـا الاثرية ، انها مراكز متطورة : مثل لكش واور •••

ومن مظاهر التجمع المدني والمدينة : البناء ، سواء ما كان منه البناء الخاص ، كالبيوت السكنية ، أو العام ، كالمعابد والاسوار الدفاعية يضاف الى ذلك ظهور المرافق والوحدات المكملة والمرتبطة بهذه المباني وسكانها : كالمواصلات والوحدات الصناعية والاسواق وغيرها •••[1]•

ويرى وولي (Sir. L. Woolley) بان انتقال التجمع السكاني من

(١) Oppenheim, L. Ancient Mesopotamia, University of Chicago. 1964 P: 125 and P: 74 - 142.

القرية الى المدينة قد حدث نتيجة لتطور نظام القرية وتنظيم الزراعة والرى[٢] ، بينما يؤكد آخرون في هذا المضمار على أهمية الانتقال من الزراعة الديمية الى الزراعة بواسطة الارواء[٣] • ويرى المنقب الفرنسي المعروف بارو

---

(٢) M. Lambert. "Comte rendu." in: R. A. 59. P. 133-136.
I. M. Diakonoff : Ia Socicté de L'État en Mésopotamie. ibid. P. 133-136.

ويحوى المصدر الاخير على اراءا خاصة ببداية المدنية وتكوين المدينة السومرية ودور المعبد في هذا التكوين كما ويناقش اراء الباحث المعروف كريمر (S. N. Kramer) الذي يرى انه كان يوجد الى جانب هيمنة المعبد قطاعات مدنية خاصة مستمدا رأيه من الوثائق السومرية •

S. N. Kramer. The Sumerians. Their History, Culture and Character. Univ. of Chicago Press. Chicago. 1963.
Lambert. ibid.

وانظر ايضا : رأي الباحث فالكنشتاين والخاص بتكوين المدينة والمدنية ودور المعبد في ذلك :

Falkenstein, A. La cité- temple Sumerienne. in : Cahiers d'Histoire Mondiale. Paris 1953-1954. P. 784...

انظر ايضا :

Lenzen, H. Die Entwieklang der Sumerishen Tempel, Zeitschrift Für Assyriologie und Vorder-asiatische Archäologie, Neue Folge, XVII (Berlin, 1954 P. 40).

(٣) حول مزيد من التفاصيل عن نمو المجتمعات في الشرق الادنى القديم والبحوث المستفيضة والخاصة بنمو المجتمعات وموضوع الاستقرار في وادي الرافدين وكيفية الانتقال من سكنى القرى الى المدن •

انظر :

R. Adams, R. Braidwood, Albright. W. Th. Jacobsen ... in: City invincible. A Symposium on Urbanization in The Ancient Near- East. Dec. 4-7. 1958. edited by Carl H. Kracling and R. M. Adams. Chicago. 1960. P. 20-60.

(A. Parrot) بأن توصل المجتمع الى تصنيع المعادن أى ما يعرف بالتعدين ، هو الاساس في بلوغ ذلك المجتمع السكاني الى مرحلة المدينة والمدنية ، ويضيف الى ذلك تقسيم العمل والتخصص في الانتاج(٤) .

ويضاف الى رأى بارو سابق الذكر ، ان تمركز الحياة الاجتماعية واستقرارها كان ايضا واحدا من الاسس في اعتماد المدينة والمدنية . فنتيجة لطبيعة العلاقات الاجتماعية اصبحت المدينة تتكون من وحدات تقليدية معروفة هي اضافة الى بيوت السكن والمعبد ، والقصر فيما بعد ، ومجموع هذه العناصر الرئيسية تكون الصفات الخاصة للمدينة وتميزها بأنفرادية معينة ، أي تنفرد كل منها بشخصية مستقلة .

وهكذا يتكون مفهوم المدينة في وادى الرافدين من مجموع التجمعات السكنية التي تتخذ لها بالمدينة اماكن ووحدات معمارية معينة ويلاحظ في شكل الوحدات المعمارية هذه معظم جوانب الفنون التطبيقية باعتبارها مكملات ضرورية لها ويعطي طابعا يميز المدينة الواحدة عن الاخرى ، هذا مع ملاحظة المفهوم الرئيسي للوحدة البنائية هنا وهو الجانب العملي اولا ، ومع ذلك ، يظل البناء والعمارة بشكل اوسع ، الشكل الاول من اشكال الفنون الرئيسية التي يمكن ان يلاحظ فيها تسلسلا واضحا في وادي الرافدين منذ الفترة السومرية وخلال الفترات اللاحقة .

وتميز بعض المفردات في اللغة السومرية والاكدية فيما بعد المدينة ككيان مستقل عن خارجها حتى فيما اذا كان لهذه المدينة متعلقات مباشرة

(٤) Revue d'Assyriologie, (RA) 59. P. 133-136.

أو غير مباشرة ، أي المناطق المجاورة للمدينة ولكن خارج سورها المستقل وبواباتها الرئيسية(٥) .

ولقد عرفت المدينة السومرية بكلمة (Uru) ويقابلها في الأكدية (âlu) وقد وردت في النصوص البابلية اشارات وصفات عديدة لها مدلولات مختلفة فالكلمة تفيد « المدينة » بمعناها التقليدي كما انها تفيد معنى ضواحي المدينة ، والاهم من ذلك ان الكلمة (âlu) استخدمت للدلالة على المدينة باعتبارها مركزا اجتماعيا (social Structure) كما اوردت النصوص المسمارية عددا كبيرا من اسماء الموظفين الذين كانوا يعملون داخل المدينة الواحدة بمختلف الرتب من كبيرهم وصغيرهم . وعرفت المدن بسكانها ومواطنيها ، كأن يقال سكان المدينة الفلانية ، واستعمل العراقيون الاقدمون نسب الشخص الى مدينته كأن يقال على سبيل المثال « فلان النفري » نسبة الى مدينة نفر . ومعروف ايضا ان امهات المدن السومرية كانت مراكز لعبادة الهة معينة ولهذا اصبحت ، على سبيل المثال ، مدينة اور مدينة للاله نا (سن) ونفر مدينة الاله انليل ، وسبار مدينة الاله (شمش) .

ولما كانت المدينة تعني محل استيطان جماعة سكنية فقد استخدمت

---

(٥) المدينة السومرية كانت في صراع حربي مع المدن المجاورة ، وكانت معظم المدن السومرية محصنة باسوار دفاعية ويحصن المدينة الواحدة احيانا اكثر من سور واحد وتشاهد عمليا بقايا اسوار من هذه المدن لازالت باقية حتى اليوم وبلغ سمك سور مدينة نفر الخارجي في اجزاء عديدة منه سبعة عشر مترا : انظر :

Antiquitis Journal. No. 4 (1923) P. 311-333.

كذلك نعرف عن سور مدينة سيبار (ابو حبة) الواقع في ناحية اليوسفية والذي تبلغ مساحته ١٣٠٠ × ٨٠٠م وبسمك ٤ـ٧ مترا من الاعلى ومن الاسفل يصل هذا السمك بين عشرة وخمسة عشر مترا . انظر :

V. Scheil. Saison de Fouilles à Sippar. Pl. et Passim.

E. Bell. Early Architecture in Western Asia, London. 1924. PP. 26, 31, 38, 43.

الكلمة (ālu) للتعبير عن معنى « المستوطنة » و « المقاطعة السكنية » في الوقت نفسه .

وباعتبار المدينة مركزا اداريا وسياسيا وعسكريا فقد اضيفت الكلمة (ālu) الى اسماء اخرى مثل (bēl āli) « حاكم المدينة » (bīt āli) « بيت المدينة » باعتبارها مركزا اداريا و (rab ālāni) « حاكم المدينة » (العسكري في العصر الاشورى) و (Sha muhhi āli) الذي ربما يوازي الاخير ، في المرتبة في العصرين الاشوري الحديث والبابلي الحديث ومن الكلمة ālu تأتي ālû بمعنى « الموطن » أي ـ مستوطن المدينة[٦] .

كذلك فان كل مخطط يشغل حيزا مكانيا يمثل ويرمز الى قوتين متضادتين : الاولى مركزية وتتمثل في الوحدات الادارية والدينية والقصر ، والثانية ، غير مركزية تشمل اطراف المدينة الداخلية وبضمنها الميناء (Karum) ومعروف ان بوابات المدينة تعتبر الحد الفاصل بين مدينة واخرى وبين الداخل والخارج في المدينة الواحدة[٧] .

وعرف سكان وادي الرافدين أهمية تقسيم الحيز المكاني في دراسة وضعية المدن في المنطقة الواحدة وكذلك تحديد مفهوم الجهة والاتجاهات الاربعة[٨] .

ثم ان مفهوم سور المدينة في وادي الرافدين يتوضح من اعتباره كتلة

---

(٦) CAD. Vol. I. Part. 2. sub alu.

(٧٧) انظر مقالة السيدة كاسان بالفرنسية حول مفهوم الزمان والمكان في وادي الرافدين القديم والمترجم الى العربية من قبل كاتب هذا المقال وذلك في مجلة سومر مجلد ٣١ (١٩٧٥) ، ص ٣٤٠ .

(٨) نفس المصدر . ص ٣٤٣ .

دفاعية ضد تحرشات المدن الاخرى وخاصة بدوافع اقتصادية بالدرجة الاولى ، هذا اضافة الى أن السور يعطي مفهوم المركزية في السلطة على مجموعة معينة من الافراد في ذلك المكان المحدد . وهكذا تفصل بوابات هذه المدن الخارجية بين عالم المدينة الداخلي والخارجي ، وهي نقطة عبور بين الحيز المفتوح الخارجي والحيز المكاني المحدد للمدينة ، والحيزان المكانيان يكونان مختلفين ايضا من الناحية النوعية .

وتعني كلمة (bâbu) في الأكدية الحيز المكاني الذي يتعلق بالقسم الخارجي من المسكن او البناء ، ويقال على سبيل المثال : « من الباب الى الخارج » وعكسه : « من الباب الى الداخل » . ومن اشتقاقات نفس الكلمة استخدمت كلمة (bâbanu) والتي تشير الى الحيز الخارجي ، خارج سور المدينة ، وهو الجزء المضاد لما يقع في داخل أسوارها .

وتبدو من الملاحظات اللغوية مدى عمق ادراك سكان وادي الرافدين ومنذ فترات تكوينهم لاولى مدنهم القديمة لمفهوم حدود الباب سواء كان المقصود بها باب السكن أو باب المدينة .

ويجدر بنا ان نلاحظ كمثال على المغالات في سمك أسوار وجدران المدن وأطوالها ما هو موجود في نفر الذي لا يمثل فقط جانبا دفاعيا بل يعكس الشعور النفسي بالنزعة الى مزيد من الاستقلال والحيطة[٩] .

---

(٩) Bottéro, J. Stève. M. J. Dict. Archéo. des Tech. Vol. II. Paris. 1964. P. 486.

كذلك انظر تفاصيل سور مدينة لكش المنسوب بناءه الى كوديا ، ويذكر عنه ان له وجهان : خارجي وداخلي ، وكشفت الحفريات الاثارية بعض اجزائه ووجد ان سمكه في بعض اجزائه يصل الى عشرة امتار وان ارتفاعه في بعض الاجزاء الاخرى يصل الى ثمانية امتار ، ووجد انه كان مشيدا بالطابوق من قياس ٣٤ × ٣٤ × ٩ سم . هذا اضافة الى ان بعض اجزائه التي وجد انها

بيـوت العامـة :

ان الاحاطة بصورة علمية بدراسة بيوت السـكن للافـراد في وادي الرافدين ترتبط بالدرجة الاساسية بطبيعة المناخ وطبيعة ومستوى الوضع الاقتصادي وذلك بداية من الالف الرابع ق • م تقريبا •

وكانت بعثات التنقيب قد زودتنا بنتائج واضحة عن نماذج لهذه البيوت منذ فترة جرمو وحسونة ولكننا هنا نبدأ مع بداية تمركز التجمعات السكنية في وادي الرافدين في مجموعة من المدن هي على الرغم من قلة نماذج بيـوت الافراد الباقية فيها بشكل سليم ، الا اننا مع ذلك نستطيع اعطاء صورة واضحة عنها من خلال هذه النماذج • ان اوضح نموذج من بيوت الافراد هذه البيت المكتشف في موقع تل اسمر والمسمى سابقا بتل اشنونا وهو من مواقع ديالى والقريب الى المناطق الشرقية من بغداد ، وكانت بعثة اثرية تابعة للمعهد الشرقي للاثار في شيكاغو قد قامت بالتنقيب فيه قبل بداية الحرب العالمية الثانية •

لقد وجد ان المتبقى من ارتفاع الجدران لهذا البيت الخاص حوالـي المترين ، ووجدت الباب الرئيسية له والتي كانت تطل على الشارع وتؤدى الى فناء الدار من جهة اليسار والى المطبخ من جهة اليمين ، كما وعثر على كوة في جوار المطبخ وفي واجهة المدخل عثر على مصطبة من الحجر ملتصقـة بالجدار ، ووجدت بقايا ثلاثة غرف اخرى فتحات مداخلها على شكل قوس

كانت مشيدة باللبن ، ويلاحظ ان داخل المدينة نفسها كانـت تضم اربعـة قطاعات رئيسية كانت تعرف بـ : گرسو ، اورازاكا ، نينا وكشكالا :

Girshu, Uru azagga, Nina, Gish - galla.

انظـــر :

Jastrow: Die Religion Baby, Und. Assy. Tome. I (1905) P. 56.

كذلك انظر :

Comptes randus de L'acad. Ins. Bell. Let. (1910) P. 154.

Muayad Said Damerji : Die entwicklung Der Turü - torarcgitektur im alten Mesopotamien. München. 1972.

ارتفاعه متر ونصف . وقد امكن تحديد فترة بناء هذا البيت بحدود منتصف الالف الثالث ق . م[١٠] .

ان مثل هذا التخطيط الواضح لاحد بيوت الافراد في وادي الرافدين يعتبر في الواقع النموذج التقليدي للبيت العراقي ما عدا بعض الاختلافات التي يمكن اعتبارها ثانوية تتعلق بطريقة توزيع الغرف على الساحة المفتوحة الرئيسية .

لقد وجدت بيوتا مشابهة لهذا المخطط من فترة اقدم كالتي عثر عليها في موقع تبة كورة[١١] من فترة العبيد .

كذلك توضح لنا بقايا بيوت سكن الافراد في مواقع اخرى في اشور ولكش (تلو) واور من فترة نهايات الالف الثالث ق . م انها مشابهة لمخطط البيت النموذجي الاول من تل اسمر وهو البيت الذي اعتبرناه نموذجا تقليديا والذي استمر عبر العصور الطويلة بشكله العام ليصبح فيما بعد البيت الشرقي المعروف .

وهكذا نلاحظ ان البيت العراقي القديم بشكل عام يتميز بوحدة بنائية متكاملة ومستقلة ، أي انها وحدة مغلقة على نفسها ، حيث تتكون من فناء مكشوف ومن مجموعة من الغرف ولا تتصل بالخارج الا من خلال باب الدخول ، أي لا توجد لها منافذ اخرى ولا حتى شبابيك مطلة على الشارع .

والمعروف ان مثل هذه البيوت ما زال معروفا لحد يومنا هذا ، ويبقى المنفذ الآخر ، هو الفناء المكشوف من الاعلى وهو المتنفس الوحيد للهواء والضوء ...

ويدخل الى البيت من خلال الباب الذي يؤدي الى المجاز حيث كانت

---

(١٠) Bottéro, J. Stève, M. J. ibid. P. 489.

(١١) نفس المصدر السابق . ص ٤٨٩ .

توضع انية الماء بجوار حفرة في الارض تستخدم على ما يبدو لغسل الارجل قبل الدخول الى البيت ، ويلي المجاز مدخل الفناء الذي يكون في العادة مبلطا ويحوى على بالوعة تكون مركزا لتجمع المياه المستخدمة في البيت(١٢) .

ان مثل هذا التخطيط النموذجي للبيت في وادي الرافدين جرى الاخذ به بالنسبة للوحدات البنائية الاخرى كالمعبد والقصر مع اختلاف الحجوم ونوعيات المواد الاولية .. والعناصر الثانوية المكملة . ومثل هذا التخطيط تمليه الطبيعة المناخية والجغرافية والواقع الاقتصادي والاجتماعي بحيث استمر الاخذ بهذا التخطيط النموذجي حتى في قصور الملوك ، سواء في وادي الرافدين أم في المناطق المجاورة لها ، كما هو الحال في تخطيط البيوت في مدينة ماري (تل الحريري مثلا)(١٣) .

---

(١٢) Wooley, L. The Sumerians. England Oxford. 1928. P. 158.

ويذكر وولي ان السقوف كانت تستخدم فيها جذوع النخيل ، وجريده ، كما ويذكر وجود ممر يطل على الفناء الرئيسي وعلى العموم فان اساليب التسقيف غير واضحة كليا ولكن امكن التوصل الى بعض أنواعها من خلال الاكتشافات الاثرية المتتابعة ، اما عند السومريين فيبدو من خلال بعض الاختام « والمقارنة مع بعض بيوت السكن المعاصرة » وطبيعة المواد المستخدمة في البناء ، فيمكن تحديد نوعية واسلوب التسقيف عندهم . انظر حول تفاصيل التسقيف في كل من اور وتلو وخفاجي وتل اسمر وعقرقوف :

Dict. Archéo. des Tech. I. Paris. 1963 P. 65...

كذلك :

ibid. Vol. II. P. 484.

(١٣) انظر مجلة سومر . العدد ١ ، ١٩٤٥ ص ٦٨ شكل ٥ب .

كذلك انظر للتوسع عن انواع القبب المستخدمة كتسقيف جزئي أو كلي :

Maspero. Hist. Ancienne des Peuples de L'Orient Classique. Tome. I. Paris. 1895. PP. 680. 685.

De Sarzec. Heuzey. Découvertes en Chaldée. PL. LVII. bis. no. I. Hilprecht. Explorations in Bible Lands. 1903. P. 420.

وتبقى ناحية مهمة وهي الاضاءة في مثل هذه الدور السكنية وفي غيرها من الوحدات البنائية في المدينة .

لقد اثار مثل هذا الموضوع جدلا بين الباحثين ، لعدم تمكن البعثات التنقيبية من العثور على توضيح كامل بهذه النقطة حتى الآن . غير ان اكتشاف بعض المعالم الدالة على معرفة سكان وادي الرافدين القدماء باستخدام اساليب متطورة في الاضاءة اعطت فرصا مناسبة للولوج في مثل هذا الموضوع ، والذي يرتبط بالنتيجة بتطور واستخدام العلم والتجربة في الحياة .

والاعتقاد السائد ا نالاضاءة في البيت كانت تتوفر من خلال المشعل (في الاكدية) (diparu) الذي كان يتخذ شكل حزمة من القصب المشبعة بالشحوم أو الزيت ، وفي السومرية يعطي الاصطلاح (GI. IZI. LA2) معنى القصبة التي تحمل النار(١٤) . ويذكر في نص من النصف الاول من الالف الرابع ق . م عن تجهيز الزيت للاضاءة(١٥) .

ولقد عثر المنقبون الاثاريون في مناطق عديدة من وادي الرافدين على ما يمكن تسميته بالمصابيح اليدوية المصنوعة من الطين المفخور واحيانا من الجبس بأشكال القواقع او تقليدا لها وذلك منذ منتصف الالف الثالثة

---

(١٤) Bottéro, J. ibid. Tome. II. Paris. 1964. P. 491.

(١٥) Clay A. T. Neobaby Lonian Letters From Erech. NO. 190. 32.

يرد الضوء المستحصل عليه بهذه الطريقة في اللغة الاكدية تحت لفظة dipâru والمعروف عن ورود النص التالي في ملحمة كلكامش :

il A- num- na -ki ish - shu-u di- pa- ra- a - ti

Glg. Xi, L. 103. واله الانوناكي حملوا المشاعل .

ق . م[١٦] .

وترد في مناسبات عديدة في نصوص خاصة بالطقوس والمعاملات التجارية اشارات واضحة الى المصباح والاضاءة المنبعثة منه والموصوفة باشكال مختلفة قد تبدو مبالغا فيها احيانا لما تعطيه مثل هذه المصابيح من انطباع مثير[١٧] . ويرد التعبير الاكدى (Shat nuri) الذي ترجم على انه الالة او الاداة ذات النور او الخاصة بالانارة[١٨] . ويبدو ان المادة الرئيسية المستخدمة في مثل

---

(١٦) عثر المنقب وولي على نماذج من هذه « المصابيح » في قبور السومريين في اور ولقد وجد ان معظمها مصنوع من الصدف الطبيعي ومن هذه النماذج ما هو مصنوع على شكل رأس الطير وزينة عيونه ظهر انها مرصعة بقطع من مادة اللازورد (Lapis) انظر تفاصيل ذلك:

Woolley. L. Ur. Exc. IV P. 103.

No: 42, 155, 215, 218, 242, 261 and vol 11 P. 283. Pl. 101.

ومن خلال تفاصيل واحدة من احجار الحدود المعروفة في وادي الرافدين تحت الاصطلاح كودورو (Kuduru) والتي ترجع الى فترة حكم الملك البابلي مردوخ ذاكر شومي (Marduk - Zakir- Shumi) يمكن رؤية شكل الطير محمولا على قاعدة ويبدو واضحا انه كان مستخدما « كمصباح » انظر :

RA, tome XVI (1919). Pl. 1.

(١٧) KAR. 80. r. 20. Maqlu. I. 135.

CAD. Vol. III (1958,) P. 157.

كذلك انظر : 4R. 26. No. 3, 39...

وانظر : ADD. 742: 5

CAD. Vol. 3. P. 157.

« الذي حمل المصباح والاضواء خلال الظلام » ، ويرد في نص آخر (بيل هو مصباحي وفي نصوص مدينة مارى (تل الحريرى) ترد اشارات عديدة عن استخدام المصابيح كاشارات ضوئية ، خلال الليل وكذلك في طريق البريد والمراسلات والحراسة ..

انظر G. Dossin. "Signaux Lumineux au Pays de Mari" in:

RA. 35 (1938) P. 174-186.

كذلك انظر : Yos, 3. 190: 32.

(١٨) DAT. II P. 492.

هذه الادوات ، كما سبق ذكره هي مادة الزيت ، ويؤكد ذلك نص آخر من مارى (تل الحريري) من حدود القرن الثامن عشر ق . م والذي يذكر عن « تجهيز مادة الزيت للمصابيح الموجودة في غرفة الملك »[١٩] .

وفي نص اشورى يلاحظ استخدام المصابيح ذات الفتائل (Busmnu) والتي كانت اجسامها تصنع من البرنز والحديد على حد سواء كما تشير بذلك بوضوح الكتابات المسمارية[٢٠] .

بنـاء المعابـد :

تتميز المدينة السومرية والرافدية بشكل عام عن غيرها من المستوطنات القروية باستخدام الطابوق مادة في البناء ومنذ فترة العبيد حيث انتشر استخدامه في البناء على نطاق واسع في اريدو واور والوركاء . لقد اعطى استخدام الطابوق في البناء بشكل عام في وادي الرافدين بعدا للمدينة وللتطور التقني فيها واعطى البعد الجديد في البناء مساحات وحجوما جديدة .

وفي اريدو بالذات وجد سبعةعشر معبدا مرتباً عموديا الواحد فوق الآخر ممثلة سبع عشرة طبقة سكنية في نفس الموقع . فباضافة الى أهمية البعد الديني الخاص بموضوع الديانة في جنوب وادي الرافدين ، فان ما يهمنا في الوقت الحاضر هو الجانب المعماري المتمثل في المعبد .

ان التشابه في مخططات كل هذه المعابد في الطبقات المتلاحقة يوحي بأستمرارية الفكرة الدينية والمعمارية التي ترتبط ارتباطا اساسيا بالمعبد .

---

(١٩) Ibid. P. 492.

(٢٠) C. H. W. Johns Assyrian Deeds, and Documents, Tome II P. 204 n' 964 rev. 15.

CAD. Vol. II. P. 348:

"businnu is possibly The name of the Plant mullein" whose leave, were used for making Candle and lamp Wicks".

يقرب الشكل العام للمعبد في اقدم طبقاته الى الشكل المربع • ويقسم الى ثلاثة قطاعات مقدسة • واقدم معبد من اريدو ، الذي يوازي دور العبيد الاول ، كان عبارة عن غرفة صغيرة مربعة الشكل تقريبا تتجه زواياها الى الجهات الاربعة الرئيسية(٢١) •

وجد اسفل هذا البناء البسيط اربعة جدران متوازية ربما كانت قاعدة أو بداية لما عرف فيما بعد بالمصطبة(٢٢) •

والمصطبة في الواقع ، مرتفعا اصطناعيا اتخذ كظاهرة معمارية بدأت في معابد اريدو ومنذ طبقاتها البنائية الاولى • وجرى تصميم هذا الاسلوب في مواقع عديدة في وادي الرافدين وخاصة في سومر • وفي الوركاء بالذات يلاحظ ثمانية من معابدها الرئيسية قد بنيت على مصاطب ، وتصل احيانا ارتفاعا الى تسعة امتار في الاصل • تلاحظ مثل هذه المصاطب ايضا في معبد العقير وفي تل براك في وادي الخابور •

ان الارتفاع بالمعبد الى علو مناسب كان تفاديا لاحتمالات الغرق أثناء الفيضانات كما لا يخفى ان في الارتفاع ايحاء بالسمو والقدسية(٢٣) •

ونجد فوق اسس هذا المعبد (السابع عشر) من اريدو في وادي

---

(٢١) فؤاد سفر : حفريات اريدو • مجلة سومر • مجلد ٤ ، ١٩٤٨ ص ٢٨٢ •

(٢٢) نفس المصدر ، ص ٢٨٢ ، كذلك انظر بحث السيد علي محمد مهدي « دور المعبد في المجتمع العراقي » من دور العبيد الى نهاية دور الوركاء ، وهو البحث الذي حاز فيه المؤلف على درجة ماجستير من قسم الاثار كلية الاداب وذلك عام ١٩٧٥ ، ص ٦٥ • كذلك انظر :

Parrot, A. Archéologie mésopotamienne. Vol. II. Technique et Problemes. Paris. 1953. P. 163 Fig. 43.

DAT. I. Paris. 1963. P. 68.

(٢٣) انتشرت هذه القاعدة المعمارية في مناطق حتى خارج وادي الرافدين وتعرف نماذج منها في ايران وحتى خلال الفترة الاخمينية •

الرافدين سلسلة من المعابد الواحد منها فوق الآخر ، اقدمها ما كان في الطبقة السفلى واحدثها الذي في العليا • ويتميز المعبد في الطبقة السادسة عشرة باضافات عشرت على بقاياها بعثة التنقيب العراقية برئاسة الاستاذ فؤاد سفر خلال تنقيباته ••• اذ وجد المدخل الى المعبد في الضلع الجنوبي الشرقي ، وفي الضلع المقابل (الشمالي الغربي) وجد تجويف طوله مترين ، سمي بخلوة المعبد أو ما يعرف بـ Cella حيث توجد في صدرها دكة مربعة الشكل هي دكة المذبح Alter ،وفي وسط المعبد دكة اخرى هي دكة القرابين[٢٤] •

هذه صورة مبسطة عن طبيعة التخطيط الاول لمعبدين (السادس والسابع عشر) من اريدو من بدايات الالف الرابع ق • م ، وتتبع نماذج المعابد من المراحل الاحدث في نفس الموقع ، توضح اتساعا في المساحة المتخذة للمعبد ، وفيه عدد من الغرف اتخذت كمخازن وغرف للكهنة وغيرهم من المقيمين في المعبد ، أما بالنسبة للوحدات الرئيسية في البناء فيظل الشكل المربع الذي تطور فيما بعد الى شكل مستطيل هو الشكل الخارجي التقليدي للمعبد • كما ويظل المدخل الى المعبد في الزاوية العريضة من الضلعين المستطيلين • وفي الداخل توجد الدكة والخلوة وهي المكان المعد لوضع تمثال الاله الرئيسي للمدينة • وتزداد الغرف المضافة الى مساحة المعبد وعلى جوانبه الاربعة اتساعا بازدياد اتساع المعبد ماديا ومعنويا • أما ما يعرف بالطلعات والدخلات التي كانت تمثل واجهة المعبد في البداية والتي تحيط احيانا بكل المعبد من الخارج فقد اصبحت سمة معمارية خاصة بالمعابد بشكل واضح ، وتفيد هذه الدخلات والطلعات في تقوية الجدار اضافة الى المظهر المتحرك شكلا لامتداد الجدار ومن الاضافات الاخرى هي المصطبة او الربوة وهي الارض التي ترتفع مع الدخول الى مدخل المعبد وتطورت فيما بعد ، الى سلم ذى درجات قليلة •

كما واضيفت الى واجهات المعابد من الخارج والداخل لطوش من الطين

---

(٢٤) فؤاد سفر : نفس المصدر • علي محمد مهدي • نفس المصدر ص ٦٦ •

المخلوط بالرماد ، اما من الخارج فقد استخدمت لطوش من الجص •

ان ابدع نموذج لتخطيط المعابد من المجموعة المكتشفة في اريدو يمثلها باعتقادنا المعبد السابع ، اذ تتوفر فيه كافة التفاصيل المنوه عنها سابقا •

(انظر الشكل رقم ١) •

لقد وجدت من نماذج المعابد السومرية الاولى بهذه الصورة والواقع المعماري المتميز وبشكل واضح في كل من مدن الوركاء واريدو وتل العقير ومواقع ديالى واشور وتبة كورة وماري[٢٥] •

ولا بد لنا ان نذكر هنا أهمية استخدام القير في البناء ابتداء من الالف الرابع ق • م ومن ثم انتشار استخدامه في الفترات اللاحقة وعلى نطاق اوسع كثيرا • والمعروف عن غنى اراضي وادي الرافدين بهذه المادة الهامة في البناء ، استخدم من قبل السومريين اولا لتلافي تصدع الابنية من الرطوبة ولاعطاء مزيد من التقوية للبناء • ولقد كا نالقير يستخدم بعد خلطه بعناصر

---

(٢٥) انظر حول تطور المعابد من عصر السومريين الاول وحتى عصر بابل القديم :

Lenzen, H. J. Mesopotamische Tempelanlagen Von der Früh-zeit Bis zum Zweiten Jahrtausand: in: ZA. 51 (1955) P. 36. ... :

Woolley. L. Antiquaries Journal. London. XI, n': 4 (1931) P. 343-381.

وحول مواضع تماثيل المعبودين في أماكنها الخاصة في المعابد بداية من العصر السومرى الاول وحتى بابل القديم • انظر :

Agnès Spycket: les Statues de Culte dans les textes Mésopotamiens des Origines A la ler. Dynastie de Babylone. Gabalda (1968) P. 9-10.

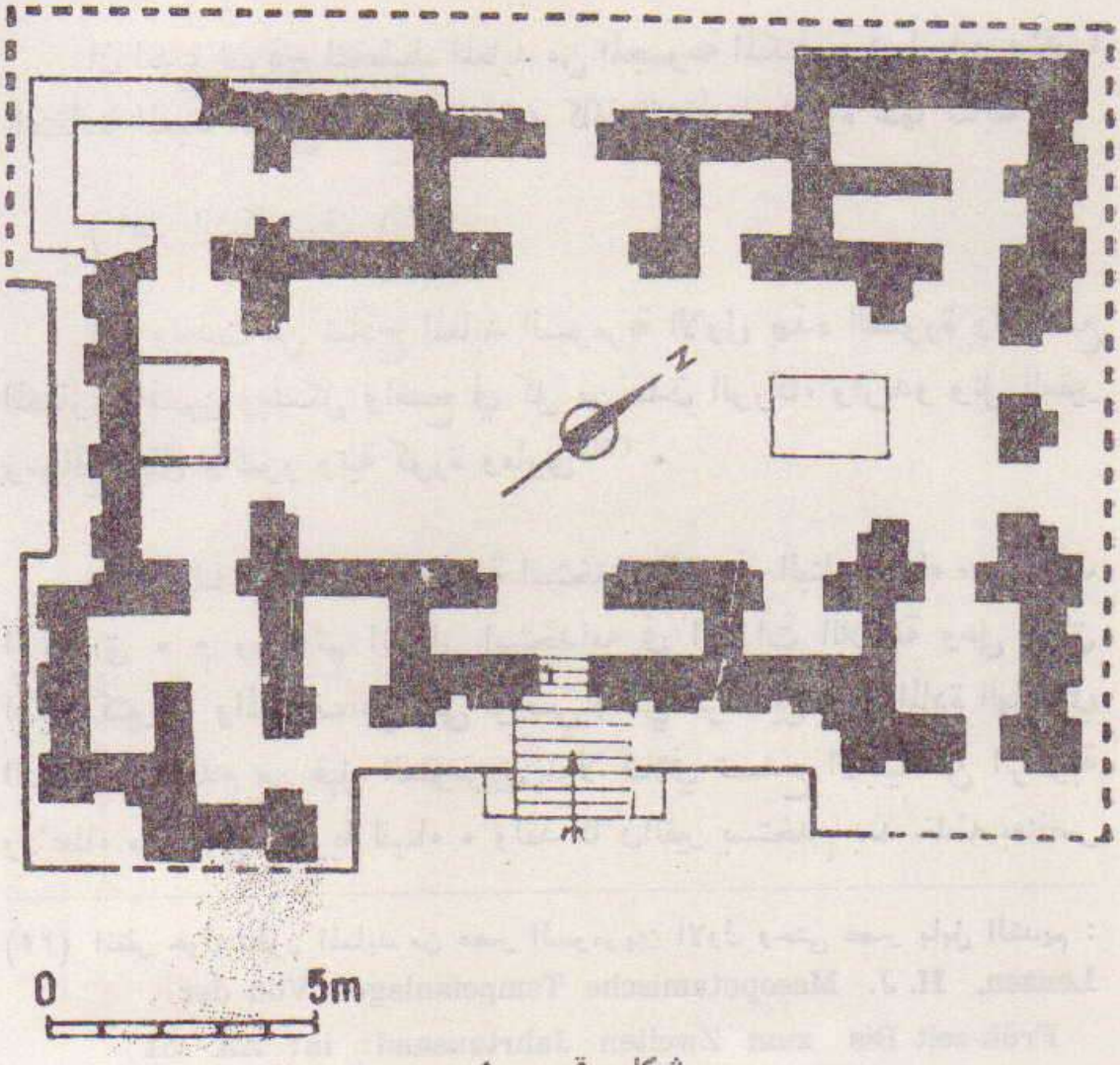

شكل رقم – ١ –

المعبد السابع في اريدو ويعرف عن جدرانه المطلية بالجص ، ويرتفع على مصطبة مشيدة من اللبن بارتفاع ١٥م وكان يرتقى الى مدخله بواسطة سلم من تسع درجات • ويعتبر هذا المعبد اقدم معبد متكامل معروف في جنوب العراق وضعت فيه قاعدة توجيه المعابد نحو الجهات الاربعة الرئيسية ايضا •

فؤاد سفر • حفريات اريدو • مجلة سومر • مجلد ٣ ، ١٩٤٧ ، ص ٣٢٩ •

كذلك انظر علي محمد مهدي • دور المعبد في المجتمع العراقي اطروحة ماجستير غير مطبوعة بعد • المسودة • ص ٦٩ •

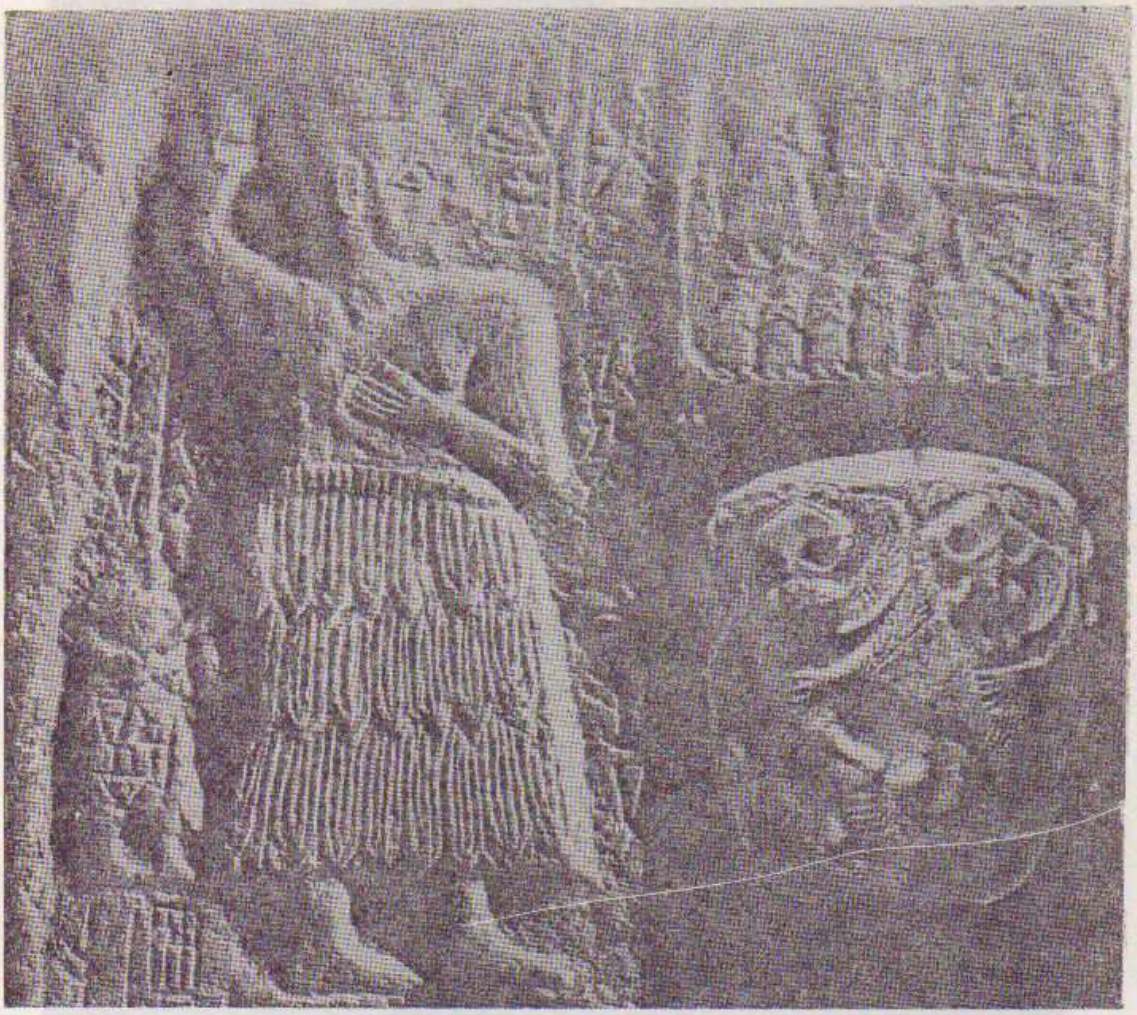

شكل رقم – ٢: –

يبدو ملك لكش اور نينا سابقا والذي يقـرأ الان اور نانشـة في جـزء من قطعة جدارية مستقلة منحوتا باسلوب النحت البارز وهو يحمل فوق رأسه قفة او سلة البناء ٠

الشكل من تلو ومصنوع من حجر الكلس محفوظة الان في متحف اللوفر بباريس منتصف النصف الاول من الالف الثالث (عصر فجر السلالات الثالث) ٠

الصورة من كتاب A. Parrot. Sumer
Thames and Hudson. 1960 P. 130 Fig. n' 159.

شكل رقم ـ ٢ب ـ

تعرف بمسلة اورنمو من القرن الثاني والعشرين ق٠م محفوظة في متحف جامعة بنسلفانيا في الولايات المتحدة الامريكية ٠

يبدو في هذا الجزء الملك اورنمو وهو يحمل على كتفه بعض العدد الخاصة بالبناء يساعده رمزيا شخص قد يكون من اتباع الكهنة والمعبد وهما خلف الاله الذي يبدو وكانه يرشد اورنمو الى مكان البناء ٠

الصورة من كتاب A. Parrot. Sumer. P. 229 Fig. 282.

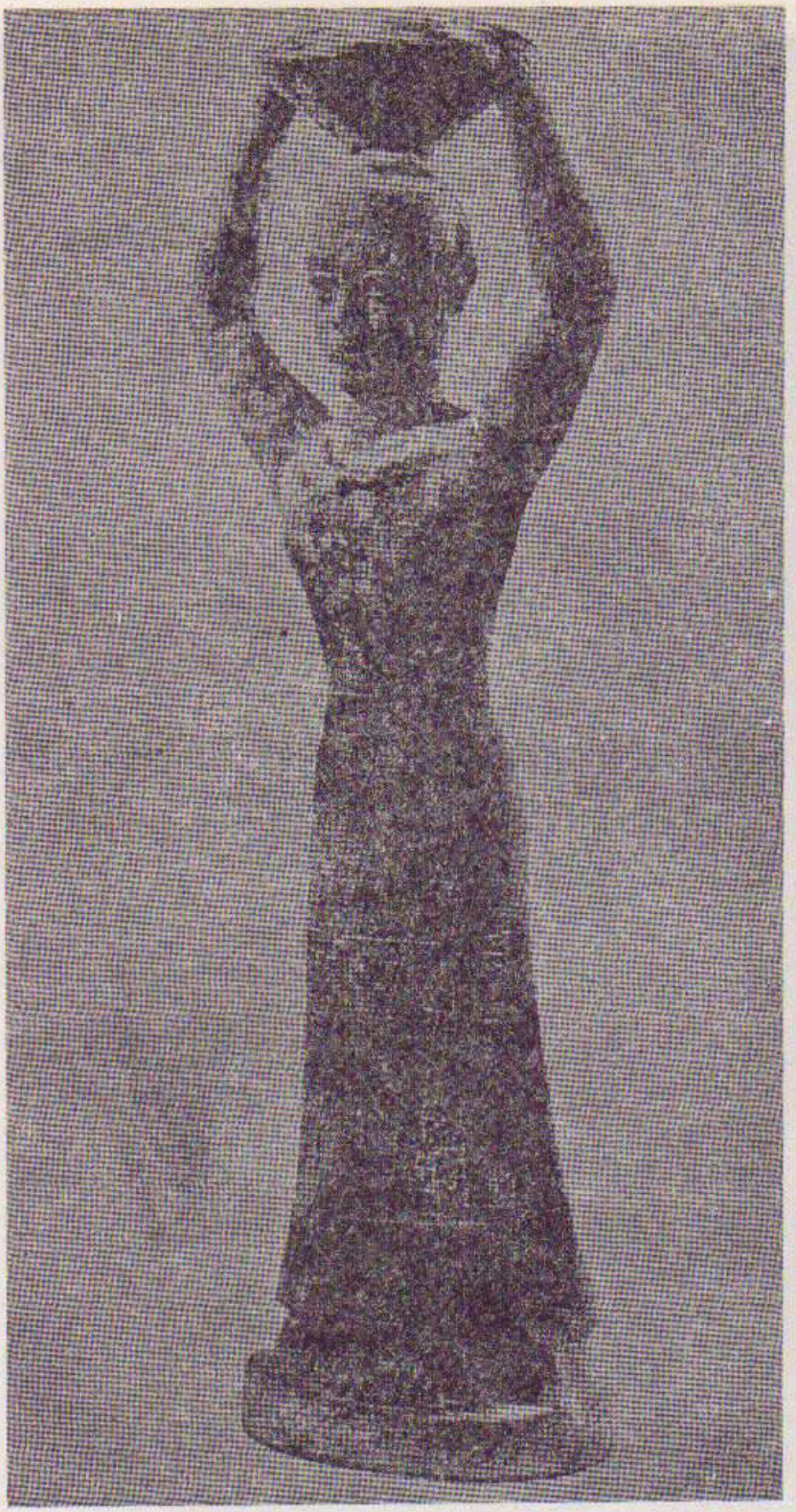

شكل رقم ـ ٢ج ـ

واحد من نماذج الملك اورنمو الاخرى ويبدو وهو يحمل القفة الخاصة بالبناء والنموذج معمول من البرنز ومحفوظ في المتحف العراقي ببغداد • ومثل هذا النموذج لهذا الملك كان يوضع في اركان البناء الجديد الذي يشيده وكانه بمثابة نموذج من حجر الاساس المعروفة عندنا حتى اليوم •

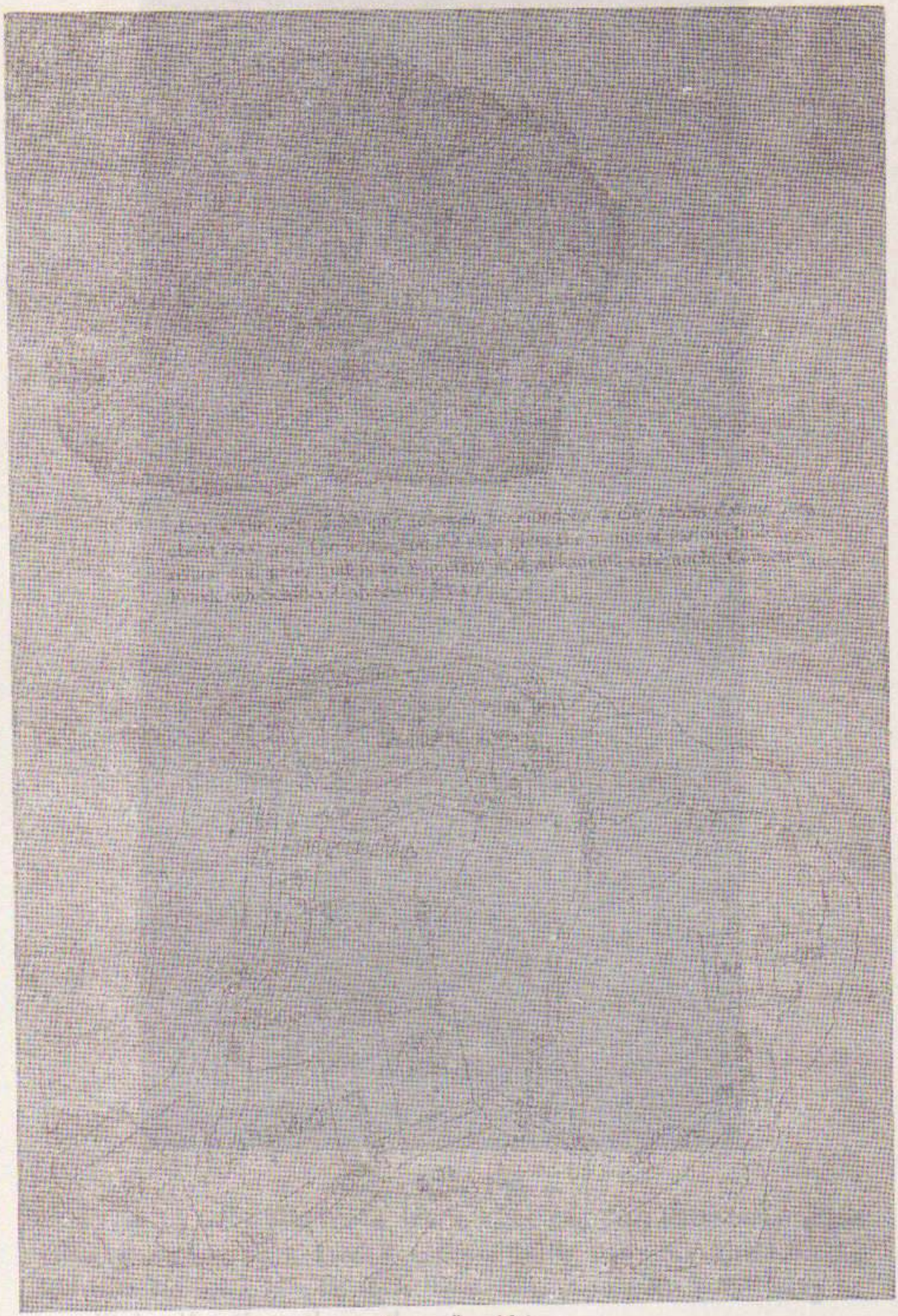

شكل رقم ـ ٣ ـ

شكل رقم ٣

استنساخ مدينة نفر على رقيم طيني مؤرخ في حدود منتصف الالف الثاني ق • م محفوظ الان ضمن مجموعة هلبرشت في مدينة ييبنا بالمانيا •

يتوضح من الخارطة تفصيل المدينة التي وجد انها رسمت وفق مقاييس مضبوطة وذلك من خلال التنقيبات •

اما الكتابة الموجودة على الخارطة فهي خليط من اللغة السومرية والاكدية وتبدو التفاصيل التالية على الخارطة هذه :

١ ـ اسم المدينة « نفر » وقد كتبت بالعلامات الرمزية القديمة EN LIL - KI اى مدينة انليل •

٢ ـ الايكور وهو موضع اشهر معبد سومري وهو معبد اله المدينة ، انليل ، وتذكر مجموعة اخرى من المعابد• ورقم ٥ على نفس الخارطة تقع الحديقة المركزية للمدينة • ويبدو نهر الفرات رقم ٧ في الجنوب الغربي من المدينة • رقم ٩ هو موقع شط النيل المعروف اليوم وكان هذا النهر يجرى في وسط المدينة ويعني اسمه حرفيا « نهر قلب المدينة » Idsha uru كذلك يبدو سور المدينة وابوابها واهمها البوابة العظيمة ١٢ •

ثم اخيرا تبدو صورة الخندقين : ١٧ ، ١٨ الاول موازيا للسور الشمالي الغربي والاخر موازيا للسور الجنوبي الشرقي •

الشكل من كتاب

S. N. Kramer. The Sumerians. Chicago. 1963. 64....

كذلك ترجمة الاستاذ طه باقر لكتاب كريمر تحت عنوان من الواح سومر ص ٣٩٥ ـ ٤٠١ •

اخرى مثل الرمل والجبس والتبن المسحوق واحيانا مع الطين كما في نفر[٢٨] ، مما يكسبه صلابة قوية ساعدت على بقاءه متماسكا حتى اليوم .

وفي بداية عصر فجر السلالات (في الالف الثالث ق . م) أى خلال مرحلة اصبحت فيها المدن السومرية في وادي الرافدين وحدات مدنية مستقرة

---

(٢٦) Contenau, G. Manuel d' Archéologie Oriental. I. Fig. 320.

وعرف من نماذج هذه التخطيطات للمعابد ايضا خلال عصر اور الثالثة وخلال العصور اللاحقة في وادي الرافدين وبالذات خلال الفترة الاشورية والبابلية المتأخرة وخير مثال على ذلك معبد أى ـ ماخ في بابل .

ان تفاصيل بناء هذه المعابد نجدها حتى وهي مخططة احيانا على رقم الطين ومفصلة كتابة مثال ذلك ما يذكره الملك البابلي نبوناهيد من تفاصيل مهمة خاصة ببنائه لمعبد الاله القمر / سـن / في مدينة حران ، ويصف كيف انه بذل الجهود الكبيرة في التفتيش عن اسس معبد هذا الاله الذي بناه اجداده ، وكيف انه يتوصل الى اكتشاف هذه الاسس بمساعدة المعمارين البابليين وخطط معهم بناء المعبد .

انظـر : King. L. w. A History of Babylon. Fig 20; P. 64.

(٢٧) Rutten, M. les Arts du Moyen - Orient ancien. Paris. 1962. Fig. 2 P. 35.

(٢٨) عرف استخدام القير منذ عصر حسونة في شمال وادى الرافدين ، أي من حدود الالف السادس ق . م ، وذلك في سبيل ربط بعض ادوات الزراعة المصنوعة من الحجر بقطع من الخشب او غيره ، انظر : JNES. IV (1945) P. 262.

انظر عن استعمال القير عند السومريين في مواقع عديدة في اريدو ، اور ، نفـر ...

Speleers, L. Les arts de l'Asie Antérieure Ancienne. Paris. 1926 P. 30.

Hilprecht. Explorations... P. 372.

Bottéro, J. Dict. Archc. des Tech. Vol. I Paris. 1963. P. I 148-158.

وفي اللغة الاكدية نجد الفعل (napâtu) الذي يعني احرق او الهب قد اشتق منه الاسم (naptu) أى النفط . وعرف البابليون والاشوريون بشكل خاص فيما بعد بتنوع استخدامهم لمشتقات القير والنفط .

ناتجة عن انتظام السلطات ومركزيتها وعن التوسع في اختصاصات العمل وتطور الاقتصاد ، مما اسهم في تطور معمارى واسع النطاق ، اذ شهدته معظم المدن السومرية وبشكل خاص مواقع السومريين في الوركاء ومواقع ديالى • ونتيجة لتزايد اهتمام السلطات المدنية والملوك بشكل اخص بالبناء كقطاع رئيسي في برنامج عملهم مما دفع السومريين الى تخليد انفسهم ورؤساءهم وهم في وضعيات يبدون فيها في خضم اعمال البناء : فنحن نجد مثلا الامير اورنانشة في نحتا بارزا (انظر الشكل ٢) وجد في لكش (تلو) وهو يحمل على رأسه سلة اللبن ، كما ويذكر گوديا بانه استلم من الاله ننكرسو مخططا خاصا ببناء معبد اي ننو (معبد الخمسين)[٢٩] •

ونجد تفاصيل بناء هذا المعبد مدونة وباللغة السومرية على اسطوانتين كبيرتين من الطين المشوى[٣٠] ، نقتبس منهما هذا المقطع :

« گوديا لأجل بناء معبد الـ اي ننو ، أخذ السلة (او القفة المقدسة) وقالب الطابوق المناسب ••• ووضع الطين في القالب ، واتم الطقوس الضرورية ••• كل شعوب العالم يسكبون معه الزيت والقطران ••• لقد حمل الطابوقة الى المعبد ، وخططوا اسس اسسه ••• كان مثله كمثل من يعيد بناء منزله الخاص ••• فشيد باخلاص المعبد جاعلا اياه بين السماء والارض ••• (نعم) لقد ارتفع گوديا بمعبد ننكرسو جاعلا اياه مثل الشمس وهي تخرج من بين السحب ، نقد ارتفع به مثل جبل مصنوع من اللازورد ، مثل جبل من الالباستر »[٣١] •

---

(٢٩) Cylinder. A. Col. I. 16. VII. 6.
Dict. Arch. des. Tech. I. P. 69.
De Sarzec. Découvertes en Chaldée. Pl. II. bis. Fig. I.

(٣٠) الاسطوانتين محفوظتين في متحف اللوفر بباريس •

(٣١) J. Nougayrol, J. M. Aynard. La Mésopotamie. Paris. 1965. P. 65.

ان خريطة البناء للمعبد او القصر ، كانت تعمل مسبقا وتتوفر لدينا مخططات لمعابد رسمت حسب مقياس نسبي على لوحات طينية • والجدير بالذكر ان السومريين اعتقدوا بان هذه المخططات قد وضعتها الالهة نفسها وانها الالهة اوصت بها الى القائمين بالبناء من حكام وكهنة عن طريق الاحلام •

ووجد على رقيم من الطين مخطط لبناء معبد انليل في مدينة نفر(٣٢) • نجد في المخطط اثار لقنوات وجدران وحفر واراضي ومخططات لبيوت سكنية ومخازن ومعبد وابواب ••• (انظر الشكل رقم ٣) •

كان المعبد ، كما هو واضح ، مركزا دينيا ونقطة استقطاب رئيسية قبل ان يظهر القصر ومنصب الملك ••• وهكذا فقد كان خلال معظم العصر السومري مركز الحياة المدنية ومنه تدار وتنظم العمليات التجارية والزراعية والحرفية ، وهو فوق كل ذلك المركز الرئيسي للمعرفة والثقافة • فلقد استلزم تنظيم الامور المدنية السابقة الذكر وجود حسابات منظمة والتي عثر على سجلاتها هيئة رقم الطين(٣٣) • ومنها وثائق تذكر مدخولات المعابد من الفوائد على الديون • ووثائق اخرى تجارية وقضائية •

---

(٣٢) يحتمل ان يكون مخطط هذا المعبد هو نسخة منقولة لمخطط معبد آخر من عصر الملك نرام ــ سن ، والمعروف ان اقتباس مخطط اقدم او اظهار مخطط لبناء يعود لعصر اقدم والبناء على اسسه كانت عادة معروفة جيدا لدى سكان وادى الرافدين وابرز مثال على ذلك ما وجدناه من عهد الملك نبوناهيد • انظر مخطط معبد نفر ايضا في :

King, History of Sumer & Akkad. P. 93.

(٣٣) لقد كانت هذه المعابد ومنذ بدايات نشوئها مراكز اقتصادية متكاملة فكانت تمتلك اضافة الى المزارع وما عليها من الزرائب والحيوانات ، مصانع تضم ورشات ومراكز انتاجية ، كذلك كانت هذه المعابد عبارة عن مراكز مارست تصدير مصنوعاتها بواسطة البر والنهر والبحر وغطت بعض المعابد بصادراتها المدن السومرية والمناطق الخارجية ، ويذكر بان معبد الآلهة باو كان يضم وحده ١٢٠٠ عامل ويمكن تخمين اعداد مقاربة استخدمها مسؤولو كل معبد من المعابد العشرين في مدينة لكش وحدها ، علما بان عدد نفوس لكش وحدها

لقد وجدت غرف خاصة في المعابد كانت تعتبر بمثابة الصفوف الدراسية لتعليم اللغة والكتابة وفيها كانت تنظم افكار المنتسبين وفق تعاليم وشؤون حياتية دينية ومدنية .

ويبدو واضحا من خلال الكتابات السومرية والاكدية فيما بعد ان هذه المعابد وتخطيطاتها وخدماتها المدنية والدينية استمرت دون انقطاع ودون تغييرات كبيرة في خلال الفترات اللاحقة ، ومن ذلك مخطط معبد الاله انليل في نفر الذي وجد مرسوما على رقم الطين وكما سبق ذكره ، ووجد ان تفاصيل البناء المذكورة في الرقم تشابه كليا ما تم اكتشافه من المعبد في نفر على يد بيتر وهاين (Peters and Haynes) (٣٤) .

لقد اكتشفت في نفر ضمن ملحقات معبد انليل هذا غرف الدراسة وتقع في الجهة الجنوبية الغربية من المعبد ، وتعتبر هذه اقدم غرف الدراسة المكتشفة لحد الآن في وادي الرافدين(٣٥) . ولقد اظهرت بعثة التنقيب اكثر من ٤٠ غرفة وجدت فيها مجموعات من رقم الطين وعليها تمارين للمتعلمين . كما وجدت فيها تمارين خاصة بالكتابة واللغة والحساب وقوائم تحوي اسماء الالهة وحتى وجدت تخطيطات وحزورات(٣٦) .

كان يبلغ في عهد اوركاجينا ب ٣٦٠٠٠ (ستة وثلاثون الف نسمة) .

انظر : Falkenstein, A. ibid. (CHM. 1954) P. 790-792.

كذلك انظر : مجلة الاقلام العراقية . العدد السادس ، السنة الثامنة ، ١٩٧٢ ص ٧٦ ـ ٧٧ .

(٣٤) Peters. Harper, Haynes, Hilprecht. Univ. Pens. 1889-1900. King. Hist. of Sumer P. 87-88. Hilprecht. Expl. in Bible- P. 470.

(٣٥) انظر : Hilprecht. ibid. P. 523.

(٣٦) Speleers. Notice Sur Insc. de L'Asie Anter. Mus. Roy. du Cinquantenaire a Bruxelles. 1923 P. 64.

اما الزقورة فهي جزء مكمل للمعبد وقد عرفها السومريون اولا وعنهم اخذها فيما بعد البابليون والكاشيون والاشوريون • وتعرف في وادي الرافدين حتى الآن حوالي ثلاثون زقورة اكتشفت في امهات المدن العراقية القديمة ، ففي الجنوب هناك زقورة اور واريدو والعبيد ولكش وانوركاء وكيش ونفر ••• اضافة الى زقورة بورسيبا وسيبار وماري وزقورات مدن اشور ونمرود وخرسباد •

لقد قدمت اجتهادات عديدة لتفسير الغرض من بناء مثل هذه الزقورات التي هي وكما معروف بناء صلد من اللبن المغلف من الخارج بالطابوق المختوم باسم الاله الرئيسي للمدينة •

لقد قيل فيها اول الامر انها ربما تكون قبورا لملوك أو الهة ، أو أنها رموزا لاشكال كونية ، ورأى المنقب الفرنسي بارو (A. Parrot) **انها ظاهرة** معمارية بنيت من قبل اناس ارادوا ان يرتفعوا فوق مستوى الارض • ورأى آخرون انها مكانا اقرب الى عبادة الالهة ، وانها الطريق المهيب الذي تسلكه الالهة للوصول الى الارض •

ان هذا التخطيط المعمارى الجديد في وادي الرافدين ، الذي ظهر في منطقة سومر اولا ، من الممكن ان يرجع لمجموعة من الاسباب وليس نسبب واحد ، فهذا الارتفاع بالبناء وسط طبيعة مستوية كليا تقريبا يعطي الالهة صفة السمو والرفعة ، وهذه ترجمة لمركز الالهة في السماء علما بان كثيرا من اسماء الزقورات هذه مشتقة من زقر – زقارو والتي من معانيها العديدة العلو والارتفاع • والمعروف ان اول ظهور للزقورة في تاريخ العراق المعمارى كان منذ عصر الوركاء أي منذ تمركز مفهوم المدنية والمدينة بشكل واضح ومتكامل تقريبا •